أصوات في سماء المدينة

. سـامي مـهـدي* .

« مدينتُنا لا تنامْ.
مدينتُنا يأكلُ الرَّملْ والنملُ أطرافَها
كالجُذامْ.
مدينتُنا ليسَ فيها من الحبِّ شيءٌ،
وليستْ، كما قيلَ، دارَ السلامْ. »

« صوتُ مَنْ تسمعونْ؟
صوتُ ناعٍ جديدْ؟
أمْ أبي جعفرٍ وهو يَرْثي مدينتَهُ،
أمْ تُراه الرشيدْ؟
أمْ الكازَرونيُّ يتلو مَقامتَهُ
ويُعيدْ؟ »

« يموتونَ في الليلِ أو في النهارْ.
يموتونَ في كلِّ وقتٍ،
على حجرٍ،
أوْ شفا حفْرةٍ،
أوْ رصيفْ.
يموتونَ من دونِ حشرجةٍ أو نزيفْ،
فلا وقتَ،
لا وقتَ إلاّ لموتٍ نظيفْ،
كموتِ البروقِ، بدونِ احتضارْ. »

« أوَ هذا منادي المزادْ
ينادي على بعضِ ما يعرضُ السندبادْ؟
أمِ الحسنُ بنُ هاني يُجَرِّئُهُ السُّكْرُ؟
أمْ هوَ عيّارُ بابِ الهوى،
أمْ فتىً جُنَّ ممّا روتْ شهرزادْ؟ »

« مسيحٌ.. مسيحٌ.. مسيحٌ جديدْ
بأجنحةٍ من حديدْ،
وصاياهُ منقوشةٌ في رؤوسِ صواريخَ
تُطلَقُ من كلِّ صقعٍ بعيدْ. »

« سلامًا..
فلسنا هنا غيرَ قافلةٍ
تَتَعَقَّبُ نجمَ المسيحِ الجديدْ،
وقد ظهرَ النجمُ من جهةِ البحرِ،
جاءَ على ظهرِ بارجةٍ كي يُعَمِّدَنا،
ويُبشّرَنا بولادةِ عصرٍ سعيدْ. »

« صَحيحْ؟!
ولكنّنا لا نرى فيهِ ما في المسيحْ!
فلا هوَ يُبْرِئُ أعمى،
ولا هوَ يُشفي كسيحْ!
رسالتُه الحربُ، لا الحبُّ،
أمّا قداديسُه فهْيَ تَلْهجُ بالقتلِ
في كلِّ ترتيلةٍ ونشيدْ! »

« رؤوسٌ.. رؤوسٌ.. رؤوسْ
مُقَطَّعَةٌ بالسَّواطيرِ أو بالفؤوسْ
مُبَعثرةٌ في المزابلِ،
لكنَّها تتحدّى،
وتسطعُ أنوارُها كالشموسْ! »

« سقطَ الآنَ منا شهيدْ!
سقطَ الآنَ بين الرصافةِ والكرخِ،
واحتَزَّ منه الوريدْ
فاجرٌ مِنْ بقايا المغولِ،
وعَلَّقَ جثمانَه فوقَ جسرِ الحديدْ! »

* ـ شاعر من العراق.

« مَنْ سيجمعُ أشلاءَ هذا القتيلْ؟
مَنْ سيَعْرِفُه؟
مَنْ سيَدْفنُه؟ مَنْ سيبكيه؟
أمْ أنه لا نصيبَ له قطُّ
في مهرجانِ العويلْ؟! »
« بلْ سيَعْرِفُه النخلُ،
تَعْرِفه الأرضُ،
تَعْرِفه الأُمّهاتْ.
فَلَهُ ظلُّهُ في الدروبِ،
ونسمتُه في البيوتِ،
ونطفتُه في الحياةْ. »

« قمرٌ في سماءِ البساتينِ وجهُ الحبيبْ.
قمرٌ لا يغيبْ
عن عناقيدِ أعنابِها،
وطنافسِ أعشابِها،
وثراها الشَذِيِّ الرطيبْ.
قمرٌ هو وجهُ الحبيبْ.
قمرٌ لا يغيبْ. »

« أراهُ يُلوِّحُ لي من خلالِ الغبارْ،
وأسمعُه وهو يُنشدُ،
أو يَسْتَحِثُّ رفيقًا له عندَ بدءِ النهارْ.
حبيبي له في البراري طريقْ
وماءُ أصابعِه شعلةٌ في الحريقْ.
تأخَّرَ عن موعدٍ بيننا،
فمواعيدُ أيّامِنا هذهِ
أملٌ غامضٌ وانتظارْ. »

« منعتني الحواجزُ مِنْ أراك،
وطاردَني جندُ جنكيزَ
ما بينَ جسرٍ وجسرٍ،
وأربكَني شامتٌ صاحَ بي :
عدْ.. مَهاتُكَ ليستْ هناكْ.
منعتني الحواجزُ،
لكنّني ما امتنعتُ،
وقلتُ: أراها، ولو دونَ هذا الهلاكْ. »

« قادَني نحو بابِ الهوى
هاجسٌ من هوايَ،
ولمّا وصلتُ تَعَثَّرْتُ،
واختلجتْ قدمايْ.
كانَ ثمَّةَ أشلاءُ قتلى
مبعثرةٌ في مرامي خطايْ. »

« جلستُ على ضفَّةِ النهرِ،
لكنَّني لم أجدْ دمعةً للبكاءِ
فغنّيتُ،
غنّيتّ حتّى استثارَ الغناءْ
بلابلَ بغدادَ،
فانتظمتْ في نشيدٍ
تصاعدَ حتّى سقوفِ السماءْ. »

« إجْرِ يا دجلةَ الخيرِ،
إجرِ الهُوَيْنا، وَرَوِّ الضفافْ.
إجرِ، لا تهربِ الآنَ منها،
فما الرملُ والنملُ إلاّ سوافٍ عوابرُ
في موسمٍ للجفافْ.
إجرِ يا دجلةَ الخيرِ،
إجرِ الهُوَينا،
إذا خفتَ مما نخافْ! »

« توقَّفْ قليلاً . . تَوَقَّفْ . . أماءً تريدْ؟ »
« وأينَ هو الماءُ والرملُ يزحفُ
والنهرُ يهربُ،
والأرضُ مُثْقَلَةٌ بالقيودْ؟! »

« تَمَهَّلْ . . فثمَّةَ من ترتوي من ينابيعه،
ويَزيدُكَ إذْ تستزيدْ! »
« ومن هو؟! »
« هذا المسيحُ العتيدْ!
المسيحُ المضَّحُ حتى نواجذه بالحديدْ!
فَجَرِّبْ إلهكَ،
والحَقْ حضارةَ عصرٍ جديدْ،
مُوَحَّدَةٌ سوقُها،
وتجارتُها حُرَّةٌ،
وبضاعتُها بشرٌ
بعقولٍ مُزَرَّرَةٍ،
وقلوبٍ مُرَقْمَنةٍ،
وأعاجيبُ لم تُعْطَها في الوعودْ! »

« دائمًا يُنشِدونَ لنا مثلَ هذا النشيدْ .
دائمًا كانَ ثمّةَ شيءٌ يخصُّ الحضارةَ
في ما يقولونَ أو يكتبونْ .
والحضارةُ تعني رسالتَها،
والرسالةُ تعني بلاغتَها،
والبلاغةُ موصولةٌ بالبطونْ .
فالحضارةُ، في آخرِ الأمرِ،
ليستْ سوى عُجَّةٍ
بَيْضُها نحنُ
يَكْسِرُه الموكَلونَ بنا دونَ عدٍّ،
وهمْ مَنْ سيأكلُها عندما ينتهونَ،
ولا ينتهونَ،
ولا يشبعونْ . »

« مدينتُنا لا تنامْ .
مدينتُنا يأكلُ الرملُ والنملُ أطرافَها
كالجُذامْ .
مدينتُنا قد تُباعُ،
وقد تُشترَى،
بالكلامِ،
وغيرِ الكلامْ،
ولكنَّ أبناءَها يولدونَ
وأذرعُهمْ شُرَّعٌ،
وأصابعُهمْ تتوعَّدُ في غضبٍ
واحتدامْ! »

بغداد